الفصل الأول

عصر القاضى الجرجانى

١ ــ الحياة السياسية

لم تكن أحوال الدّولة العباسية فى أواخر القرن الثالث هادئة مرضية ، فقد انتكست الأحوال فى عهد المكتفى بن المعتضد الذى بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه فى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ (١٥ أبريل سنة ٩٢٠ م) ، وابتدأ عهده بظهور المنافسات بين كبار رجال الدّولة ، فكان أحدهم يكيد للآخر أخبث الكيد ، يريد أن يصل بذلك إلى مأربه ، غير ناظر فى ذلك إلى ما تقتضيه مصلحة البلاد ؛ فانصرف ذوو النفوذ إلى تحقيق أطماعهم الشخصية ، مما كان سبباً فى ازدياد أمر القرامطة شرًّا ، وانتشار فسادهم فى الشام والعراق والبحرين وطريق مكة ؛ فقد مضوا إلى هذه البلاد يبثّون الرعب فيها ، ويكثرون القتل فى كلّ بلد دخلوه ، ويخرّبونه ، مما اضطر معه المكتفى إلى أن يخرج بنفسه لقتالهم فى الشام ، وبرغم هزيمتهم فيه لم يستطع الخليفة أن يبيد المذهب القرمطىّ .

وفى عهد المقتدر أخى المكتفى ، الّذى بويع بالخلافة فى ذى القعدة سنة ٢٩٥ هـ ، وكانت سنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ــ سقطت هيبة الخلافة بتلك الفتنة الّتى شبت بين المقتدر وابن المعتزّ ، وانتهت بالقبض على ابن المعتزّ وحبسه وتعذيبه حتّى مات[1] ؛ فلم يعد للخلافة سلطان ولا مكانة فى نفوس

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨ : ٨ .

الناس . وكان المقتدر عندما تولى الحكم حدثاً صغير السنّ . لا يدرك فى السياسة شيئاً وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم فى كل ما يجرى من شئون الدّولة . وإليهما يتقرّب بالرّشوة من يريد عملا أو وزارة . والمقتدر . منصرف إلى لهوه . لم يعد بيده من الأمر شىء .

وقد توالى الوزراء فى أيامه . يبدؤون عهدهم بالمصادرات . وينتهى أمر أكثرهم بالقبض عليه وحبسه . ونهب دوره وأمواله . يقول ابن الأثير فى حوادث سنة تسع وتسعين ومائتين : « فى هذه السنة قبض المقتدر على الوزير أبى الحسن ابن الفرات . ولما قبض على الوزير . وكل بداره . . . . ونهب ماله ، ونهبت دور أصحابه ، ومن يتعلق به ، وافتتنت بغداد لقبضه . ولقى الناس شدّة ثلاثة أيام . ثم سكنوا . . . وقلد أبو علىّ محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان الوزارة . . . وكان ضجوراً ضيّق الصدر . مهملا لقراءة كتب العمال . وجباية الأموال ... وكان أولاده قد تحكموا عليه . فكلٌّ منهم يسعى لمن يرتشى منه . وكان يولّى فى الأيام القليلة عدّة من العمال . حتى إنه ولّى بالكوفة فى مدة عشرين يوماً سبعة من العمال . فعرضوا توقيعاتهم . فسار الأخير منهم . وعاد الباقون . . . فقيل فيه :

وزيرٌ قد تكامل فى الرّقاعه ... يولّى ، ثمّ يعزل بعد ساعهْ
إذا أهل الرّشى اجتمعوا لديه ... فخير القوم أوفرهم بضاعهْ
وليس يلام فى هذا بحالٍ ... لأنّ الشيخ أفلت من مجاعهْ

ثم زاد الأمر . حتى تحكّم أصحابه . فكانوا يطلقون الأموال . ويفسدون الأحوال . فانحلت القواعد ، وخبثت النيات . واشتغل الخليفة بعزل وزرائه . والقبض عليهم . والرّجوع إلى قول النساء والخدم ، والتصرف على مقتضى آرائهن . فخرجت الممالك . وطمع العمال فى الأطراف[1] » . ففى إفريقية

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٥ .

نامت الدولة العلوية ، واستقرت فى مدينة المهدية ، وجعلت همّها الاستيلاء على مصر ؛ وفى البحرين وما جاورها اتسع سلطان القرامطة ، واستقلوا بملك هذه البلاد ؛ وفى خراسان وما وراء النّهر استقرّ ملك الدولة السامانية ؛ وفى الموصل ابتدأت دولة الحمدانيين .

ولما رأى عبد الرّحمن الناصر بالأندلس انحطاط شأن الخلافة العباسية إلى هذا الحدّ سمّى نفسه : أمير المؤمنين[١] .

وكانت الفتن الداخلية ، والانصراف إلى تهدئتها سبباً فى استفحال أمر الرّوم على الحدود الإسلامية ، يغيرون عليها ، ويأسرون من فيها ، ويخربونها ، ولم ينتصف المسلمون منهم إلا فى القليل .

وهكذا كانت خلافة المقتدر فى جميع أيامها شرّ أيام على الدّولة العباسية .

وبعد خلاف بين المقتدر وقائده مؤنس دارت معركة هزم فيها الخليفة وذبح ، ثم رفعوا رأسه على خشبة ، وهم يكبرون ويلعنونه ، وأخذوا جميع ما عليه ، وتركوه مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الفلاحين ، فستره بحشيش ، ثمّ حفر له موضعه ، ودفن ، وعفى قبره[٢] .

وانقضت مدّة القاهر بعده (٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ — ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ) فى أسوأ الأحوال ، بين اشتغاله بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه ، ومحاولة أخذ المال من أمه ، ولم يمنعه مرضها وجزعها على ابنها الذبيح من أن يضربها أشدّ ما يكون من الضّرب ، وأن يعلقها برجلها ، لتعترف بما تملك ؛ ثمّ حلّ وقوفها جميعها ، ووكّل فى بيعها ، فبيع ذلك جميعه ، ثمّ صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته[٣] ، وعلق الأستاذ الخضرىّ على ذلك بقوله : « ولم نسمع فى التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة ، وجبناً ،

---

(١) الدولة العباسية للخضرى ص ٣٩٦ .
(٢) الكامل ٧ : ٩٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٩١ .

وخسة ، وشراهة نفس[١] » .

وبعد نزاع عنيف بينه وبين وزيره ابن مقلة وقائده مؤنس وحاجبه وابن حاجبه وغيرهم ؛ اتّفقوا على خلعه ، وزحفوا إلى الدّار ، وهجموا عليها من سائر الأبواب ؛ فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ مخموراً ، وطلب باباً يهرب منه ، فلم يجده ، فقبضوا عليه وحبسوه ، وسملوا عينيه ، وبذلك انتهت مدة خلافته .

وازدادت الحال إدباراً واضطراباً فى عهد خلفه : الرّاضى (٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ — منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ) ؛ فكان أصحاب النفوذ فى العراق يتنافسون ، ويقتتلون ، والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون ، وانتهت مدّة الرّاضى فى منازعات سياسية ، والأعداء ، ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ، ولم يعد لها شىء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة .

ومما زاد الأمر إدباراً ظهور المنازعات الدينية ببغداد ؛ فقد ظهر بها الحنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يهاجمون دور القوّاد والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن رأوا مغنّية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، وإن شاهدوا من يمشى مع امرأة أو صبىّ سألوه عن الذى معه : منْ هو ؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه ، وحملوه إلى صاحب الشرطة ، فأثاروا الفتنة ببغداد[٢] .

وفى عهد الراضى ظهرت الدّولة الإخشيدية بمصر ، وحدث اسم أمير الأمراء فى بغداد ، وصار إلى أمير الأمراء الحلّ والعقد ، والخليفة يأتمر بأمره ، وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شىء[٣] .

ولهذا كان الوصول إلى هذا المنصب أمل كبار رجال الدّولة . ومن أجله يقتتلون ، وانتهت مدّة المتّقى (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ — ٢٠ صفر

---

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٤٠١ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٠٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٤١١ .

سنة ٣٣٣ هـ) فى نزاع وحروب بين القادة للظفر بسلطة أمير الأمراء ، وانتهى الأمر بأن اختار المتقى مضطرًّا أكبر قوّاد الدّيلم واسمه : « توزون » لمنصب أمير الأمراء ، ولم يكن عنده شىء من حسن السياسة ، فاستوحش منه المتقى وخافه على نفسه ؛ فمضى إلى بنى حمدان ، وبعد حروب بين « توزون » وحماة الخليفة الحمدانيين ، حلف « توزون » ألا يغدر بالمتقى ، وفى الطريق الذى عاد به المتقى إلى بغداد التقى به « توزون » ، وقبّل له الأرض ، وقال له : هأنذا قد وفيت بيمينى والطاعة لك ، ثمّ وكّل به وبمن معه ، ثمّ سمله ، فأذهب عينيه ، ويقول ابن الأثير : « فلما سمله صاح وصاح مَن عنده : من الحرم ، والخدم ، وارتجت الدّنيا ، فأمر " توزون " بضرب الدّبادب ؛ لئلا تظهر أصواتهم ، فخفيت أصواتهم ، وعمِىَ المتقى لله [1] » .

وخلفه المستكفى بالله الذى لم يبق فى الخلافة إلا سنة واحدة وأربعة أشهر ، وفى عهده استولى البويهيّون على بغداد ، وفى اليوم الذى دخل فيه معز الدولة البويهى بغداد سقط السلطان الحقيقى من أيدى الخلفاء العباسيّين ، وصار الخليفة ، رئيساً دينيًّا ، لا أمر له ، ولا نهى ، ولا وزير ، وإنما له كاتب يدير أمواله ، وصار معزّ الدولة يستوزر لنفسه من يشاء .

وقد خطر ببال معزّ الدّولة أن ينقل الخلافة عن العباسيين إلى العلويين ؛ لأن الديلم كانوا شيعة ، ولكنّ بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل ، وقال له : إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه ، مستحلّين دمه ؛ ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحّة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا ؛ فأعرض عما كان قد عزم عليه .

ولم يمكث المستكفى فى الخلافة بعد استيلاء معزّ الدولة سوى أربعين يوماً .

---

(١) الكامل ٨ : ١٦٣ .

ثم خلع ؛ لأن معزّ الدولة اتّهمه بالتدبير عليه ، وصمّم على خلعه ، فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر معزّ الدولة والناس عند الخليفة ، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان ، فتناولا يد المستكفى بالله ، فظنّ أنهما يريدان تقبيلها ، فمدّها إليهما ، فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامته فى حلقه ، ونهض معزّ الدّولة ، واضطرب الناس ، ونهبت الأموال ، وساق الدّيلمان المستكفى بالله ماشياً إلى دار معزّ الدّولة ، فاعتقل بها ، ونهبت دار الخلافة ، حتى لم يبق بها شىء ؛ ولما بويع المطيع لله بعده سلم إليه المستكفى ؛ فسمله ، وأعماه ، وبقى محبوساً إلى أن مات[1] .

وإلى هذا الحدّ من الهوان وصلت الخلافة العباسية ، وزاد الأمر سوءاً ما كان بين الأسرة العباسيّة نفسها من التباغض والتحاسد ، فمثلا نرى المستكفى بالله عندما ولى الخلافة يخافه المطيع لما كان بينهما من منازعة ، فقد كان كلّ منهما يطلب الخلافة ويسعى إليها ، ويهرب المطيع ، ويستتر ، والمستكفى يطلبه أشد الطلب فلا يعثر عليه ، فلما قدم معزّ الدولة إلى بغداد قيل : إن المطيع انتقل إليه ، واستتر عنده ، وأغراه بالمستكفى حتى قبض عليه[2] .

ولم يكن عهد المطيع لله (٢٢ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ — منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣) بأفضل من عهد سابقه ، ولكن سارت الخلافة فى طريق الاضمحلال ، ولم يتجه معزّ الدولة إلى الإصلاح والتعمير ، وإنما انصرف إلى الحرب مع جنده الدّيلم حيناً ، ومع ناصر الدّولة بن حمدان بالموصل حيناً آخر ، ومع البريدىّ أمير البصرة تارة أخرى ؛ ولم يكن عهد معزّ الدّولة ببغداد إلا شرًّا كله ، من جرّاء الخلافات الدينية والحروب الداخلية والخارجية ، وضعف هيبة السلطان . وصارت البلاد أسوأ حالا فى عهد ولده عز الدّولة الذى اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٧٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٧ .

وكان سوء الحال إلى هذا الحد سبباً فى طمع الروم واستفحال أمرهم ، فاستردّوا جميع الثغور الإسلامية الكبرى ، وأغاروا على كثير من بلاد الشام والجزيرة ، وصارت لهم الهيبة فى القلوب ، وأمراء المسلمين يغزو بعضهم بعضاً ، ويطمع كلّ فيما فى يد صاحبه . ويُشغلون بذلك عن عدوّهم الذى لا ينام[١] .

وخلع المطيع نفسه بعد أن أصيب بالفالج ، وخلفه ابنه الطائع إلى أن خلع فى ٢١ رجب سنة ٣٨١ هـ . وفى عهده قام الخلاف بين بنى بويه ، حتى إذا آل الأمر إلى بهاء الدّولة البويهىّ قبض على الطائع ؛ وذلك لأن الأموال قلّت عنده . فشغب عليه الجند، فأطمعه وزيره فى أموال الخليفة، وحسّن له القبض عليه . فأرسل إلى الطائع . وسأله أن يأذن له فى الحضور إليه . فأذن له ، ودخل بهاء الدّولة ومعه عدد كثير . فلما دخل قبّل الأرض . وجلس على كرسىّ . فدخل بعض الدّيلم كأنه يريد أن يقبّل يد الخليفة . فجذبه وأنزله عن سريره ، والخليفة يقول : « إنا لله . وإنا إليه راجعون » . ويستغيث ، فلا يُلتفتُ إليه. وأُخذ ما فى داره من الذخائر . وفى دار « بهاء الدولة » أشهد عليه بالخلع [٢]سنة ٣٨١ هـ .

وظل الحال فى إدبار فى عهد الخليفة القادر بالله الذى ظل خليفة إلى أن مات سنة ٤٢٢ هـ . فلم يكن له شىء من السلطان . وكان فى زمنه أحداث عظام من قيام دول وإبادة أخرى .

وفى عهد هذا الخليفة توفى القاضى الجرجانى سنة ٣٩٢ هـ

وكانت « جرجان » إمارة لها مكانتها عند من يتغلب عليها ، وقد يتخذها دار مقامه كما فعل مؤيد الدولة البويهى[٣] .

---

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٤٣٤ وما يليها .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٦ .

(٣) الصاحب بن عباد ص ٣٢ .

٢ ـ الحياة الاجتماعية

لم تكن الثروة فى العصر الذى عاش فيه القاضى الجرجانى موزعة توزيعاً عادلا ، ولكنها كانت فى أيدى الأمراء والحكام ومن يلوذ بهم ، أما طوائف الشّعب فترسف فى قيود البؤس والفاقة .

وكانت ثروة كبار الرجال ضخمة ، ينفقونها فى الترف وبناء القصور ، ومتع الحياة ، ولم يكن مصدر هذه الثروة فى كثير من الأحيان مصدراً مشروعاً ، فقد كانت المناصب الكبيرة تشترى بالمال ، على أمل أن يعود من يصل إليها ، لابتزاز أضعاف هذا المال من غير وجهه الحلال .

وقد حفظ لنا التاريخ بعض ما خلفه الأمراء فى ذلك الحين ، فنجد « بجكم » مثلا ، وهو الذى كان أمير الأمراء فى عهد المتّقى ، يستولى الخليفة ، بعد قتله ، على داره وما فيها من الأموال ، فيبلغ ما ناله ألف ألف ومائتى ألف دينار ، وكانت مدّة إمارة بجكم سنتين ، وثمانية أشهر وتسعة أيام [١] .

ومما يدلنا على مصدر أموال الأمراء ما يروى من أنّ مؤيد الدولة البويهى أمير جرجان عندما اشتد به المرض ، قال له الصّاحب : تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه ، وتبرأ من هذه الأموال التى لست على ثقة من طيبها ، وحصولها من حلها . واعتقد متى أقامك الله وعافاك ، صرفها فى وجوهها ، وردّ كلّ ظلامة تعرفها ، وتقدر على ردّها [٢] .

كان المجتمع إذاً فى ذلك العهد يتكوّن من طبقتين تتميزان تمام التميّز ؛ إحداهما طبقته العلية ، وهى محدودة العدد بالنسبة إلى الطبقة الثانية ، وهى جماهير الشعب .

---

(١) الكامل ٨ : ١٤٣ .
(٢) الصاحب بن عباد ص ٣٣ .

وكان لزاماً على الشعراء والعلماء إذا أرادوا الحياة أن يتّصلوا بواحد من طبقة العلية ، يضمن له عيشه، ويحيا الشاعر والعالم فى كَنَفه، وربما اضطرّ أحدهما إلى أن يبذل ماء وجهه فى سبيل الوصول إلى من يرعاه ؛ وقد يؤثر بعضهم الانزواء والفقر ، على الثروة وفقدان الكرامة .

ولذلك شاع فى مدح الشعراء إطراء السَّخاء وذم البخل ، رغبة فى نوال الأثرياء ، كما شاع أيضاً إهداء العلماء كتبهم إلى الطبقه الحاكمة ، وتصدير هذه الكتب بذكرهم والثناء عليهم .

وفسدت الحياة الاجتماعية بما كان بين الجند من اختلاف عنصرى ؛ فإنهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك ، وبين العنصرين غيرة ومنافسات ، فكان بينهما فى أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس ، حيث تقف حركة التجارة ، لخوف الناس على ما بيدهم من المال [١].

كما فسدت بالنظام الإقطاعى الذى يهب الأرض لكبار القوّاد والأمراء ، وهؤلاء لا يعنيهم من الأرض إلا ما تدرّه عليهم من الثمرات ؛ فاشتطّ غلمان المقطعين فى الظلم ، وضعفت همّة الفلاحين فى القيام بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها [٢].

كما عمل على فسادها أيضاً هذه الخلافات المذهبية التى كانت تثور بين العامة ؛ فتجعل البلاد ميداناً للاضطرابات المتكررة ؛ فبعد قيام الدّولة البويهية ، وهى دولة مغالية فى التَّشيع ، نما مذهب التشيع ، ووجد له من قوّة الحكومة أنصاراً ، فكانت الاضطرابات تتكرّر ، والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين ، والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر ، وكان لذلك أسوأ الأثر فى الأحوال العامة [٣].

---

(١) تاريخ الدولة العباسية للخضرى ص ٤٢٧ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق ص ٤٢٨ — ٤٢٩ .

ويضاف إلى ذلك هذه الاضطرابات التى كانت تسود البلاد عند قيام النزاع بين من يريدون الاستئثار بالسلطة ، أو بين بعض المتغلبين فى أطراف الدولة وبعضهم الآخر .

وظل المذهب الشّعوبى يعمل عمله فى النفوس ، فظهرت الحركة الانفصالية الفارسية فى القرن الثالث الهجرىّ ، وازدادت فى القرن الرابع ؛ فكانت بلاد فارس تجتهد فى التخلّص من سلطان الخلافة العباسية ، ثمّ يمتدّ نفوذها السياسى إلى العراق ، وقام بها حينئذ دول ذات كيان مستقلّ .

كما أن اللغة الفارسية استعادت حياتها ، وفى ظلّ تلك الدّول ظهر شعراء ينظمون بالفارسية ، ومنهم من نظم بها وبالعرابية ، كقاموس بن وشمكير [1] .

أمّا الناحية الخلقية فكان الانحلال يسود طبقة الأغنياء والمترفين ، وكان الكبر والغطرسة ديدن أولى الأمر ، أما الفقراء والبائسون فأذلاء يبيعون كرامتهم ، وإذا كنا نرى فى بعضهم عزّة وكرامة فقد كان ذلك فى القليل النادر .

ولكن العلماء قد استعاضوا عن الظفر بمتع الحياة بتقدير بعضهم لبعضهم الآخر . فكانت تصل إلى النابغين منهم رسائل الإعجاب من قرّائهم ، وكان هؤلاء النابغون يجدون فى ذلك بعض العزاء .

ونضيف إلى مظاهر الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر الولوع بالغلمان فى الأوساط المستهترة ، وعند بعض العلماء والأدباء ، وظهر ذلك فى إنتاج الشعراء يومئذ .

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين ، وكان الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم .

---

(١) ابن العميد ص ١١ .

٣ ـ الحياة العقلية

إذا كان انقسام الدّولة العباسية ، وقيام دويلات فى أرجائها ، قد فتّت وحدة الأمة الإسلامية ، وعاد بالضّعف على الخلافة ـ فقد كان هذا الانقسام سبباً فى قيام نهضة علمية كبرى فى القرن الرّابع الهجرىّ .

ذلك أنه فى عصر الوحدة السياسيّة كانت العاصمة بغداد تستأثر وحدها تقريباً بالنصيب الأكبر فى النهضة العلمية والأدبية ، ولا يكاد يكون لغيرها إلا حظٌّ ضئيل فى هذه النهضة ؛ فلما قامت الدّول المقتطعة من جسم الدّولة العباسية كان لكل دولة عاصمتها ، وفى كلّ عاصمة أميرٌ يعمل بكلّ ما أوتى من قوّة على أن يجذب إلى بلاده النوابغ فى العلم والأدب ، وينافس فى ذلك غيره من أمراء العواصم الأخرى ، فكان ذلك مجالا لتفتح مواهب كثير من العلماء الذين أتيح لهم الاتصال بهؤلاء الأمراء أو الوزراء .

كما أن فساد الحالة السياسية دفع بعض العلماء إلى أن يفرغ لعلمه بعيداً عن هذا المعترك الذى يتنافس فيه الرّاغبون فى المناصب السياسية الرفيعة .

وكانت بغداد والرّى ونيسابور ، وهى بلاد زارها القاضى الجرجانى ، كما زار غيرها ـ من مراكز الحركة العلمية النشيطة فى ذلك العصر .

وأتيح لهذا العصر ثلاثة من الرجال نهضوا بالعلم والأدب نهضة قوية ، وأتاحوا للعلماء حياة خصبة منتجة ، وهم عضد الدّولة البويهىّ ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد .

أما عضد الدولة فهو ابن ركن الدّولة صاحب بلاد الرّىّ والجبل ، ثم ضم العراق إلى ملكه ، بل ضم إليه تقريباً ملك البويهيّين جميعاً ، وكان يقيم فى الرّىّ أحياناً ، وحيناً فى شيراز ، ثم جعل بغداد عاصمة ملكه بعد أن فتح العراق .

وكان عضد الدّولة إلى جانب ملكه الواسع ، مثقفاً ثقافة عالية ، يقصده العلماء ، ويمدحه الشعراء ، وإليه رحل المتنبي ، وأنشده قصائد مدحه ، وقال في إحدى هذه القصائد :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها[١]

وكان ابن العميد وزيراً لركن الدولة، وظل وزيراً نحو اثنتين وثلاثين سنة حتّى توفّي سنة ٣٦٠ هـ ، وكان مركز إقامته بالرّيّ .

وبرّز ابن العميد في علوم شتّى ، كان حافظاً للغة والغريب ، دارساً للنحو والعروض ، حافظاً لدواوين الشعراء جاهليين وإسلاميين ، عارفاً بتأويل القرآن ، ومشكله ومتشابهه ، ملمّاً باختلاف فقهاء الأمصار ، وإلى جانب ذلك كان ذا حظ موفور في الهندسة والمنطق ، وعلوم الفلسفة والإلهيّات والحيل (الميكانيكا) والطبيعة وغيرها[٢] .

وأثنى الصاحب بن عباد على ذوقه في نقد الشعر إذ قال : « ما رأيت من يعرف الشعر حقّ معرفته ، وينقده حق نقده ، غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد ؛ فإنه يجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهذيب المعنى ، حتّى يطالب بتخير القافية والوزن »[٣] .

وأما الصاحب بن عبّاد فكان هواه في العلوم الشرعية كالحديث والتوحيد والأصول ، والعلوم اللغويّة ، وكان متبحّراً في اللغة .

وكان واسع الثقافة الأدبية، اجتمع حوله من الأدباء ما قلّ أن يجتمع لغيره ، حتّى قال الثعالبي عنه : « احتوى به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد »[٤] .

---

(١) كان عضد الدولة أول من لقب بالملك في الإسلام – ظهر الإسلام ١ : ٢٤٦ .
(٢) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٨ .
(٣) الكشف عن مساوئ المتنبي ص ٢٢٣ .
(٤) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٩ .

وفى عصر هؤلاء عاش القاضى الجرجانى ، واتصل بابن عباد وقابوس .

وقد تقدمت العلوم فى ذلك العصر ، وزادت فروعها على ثلاثمائة ، كان من بينها علوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران[١] . وحسبك أن ترجع إلى كتاب « الفهرست » لابن النديم [٢] لترى تلك الجهود الواسعة التى بذلها العلماء فى دأب ، حتى تكوّنت نهضة علمية مباركة .

فمن العلوم التى درست فى ذلك العصر العلوم الشرعيّة من التفسير والحديث والفقه والأصول وعلم الكلام ، وكان الصّاحب بن عباد معتزليًّا ، نصر الاعتزال ، وقرّب إليه المعتزلة [٣] .

ومنها العلوم اللسانية كالنحو والصرف ، وكان أكثر ما دوّن فيه شروحاً وتعليقات ، ومن أشهر علماء النحو فى ذلك العصر ابن جنى صاحب الخصائص فى أصول النحو ، وسرّ الصناعة فى النحو[٤] .

وظفرت اللغة بنصيب كبير من العناية فى ذلك العصر ، فرأينا أحمد بن فارس الرّازى [٥] ، يصنف كتاب المجمل حافلا بالشواهد [٦] ، ووصل إلينا من كتبه كتاب « الصاحبيّ » نسبة إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها . كما ألف الصاحب فيها كتابه « المحيط » .

وورث هذا العصر الكتب التى ألّفت فى الأدب والنقد الأدبى ، فقرأ آراء ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وأفكار ابن قتيبة فى كتاب « الشعر والشعراء » ، وما جمعه ابن المعتزّ فى كتاب « البديع » ، وما كتبه قدامة فى مؤلفه : « نقد الشعر » ؛ كما ورث المجموعات الشعرية التى ألفها المفضل

---

(١) تاريخ الأدب العربى — ج ٣ — العصر العباسى ص ١٦ .
(٢) توفى سنة ٣٨٥ أو سنة ٣٧٨ هـ .
(٣) ظهر الإسلام ص ٢٥٣ .
(٤) تاريخ الأدب العربى ج ٣ — العصر العباسى ص ٢٤٦ .
(٥) توفى سنة ٣٩٠ هـ .
(٦) تاريخ الأدب العربى — ج ٣ — العصر العباسى ص ٤٧

الضبّيّ ، وأبو تمام والبحترى وغيرهم ، وآلت إليه دواوين الشعراء الذين نبغوا فى القرون السابقة ؛ فكان من ذلك ثروة أدبيّة واسعة .

كما أسهم هذا العصر بإنتاج أدبىّ ضخم من عمل الشعراء الذين عاشوا فى بلاط أمراء الدّويلات ووزرائهم ، أو عاشوا فى خضم الحياة العادية . وعلى رأسهم ديوان المتنبى .

وأسهم فى تاريخ الأدب والنقد بكتب لا تزال مراجع حيّة إلى وقتنا هذا ، ككتاب الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى[١] . والموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزبانىّ[٢] . وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى[٣] .

وأثار المتنبى حركة قويّة من النقد فى حياته وبعد وفاته ، فألفت رسائل فى بيان عيوبه ، وأخرى فى ذكر فضائله ومزاياه ، كما وقف البعض من هذه الخصومة موقفاً وسطاً يعرف للشاعر نقائصه وفضله . وكان من أثر ذلك ظهور كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى .

كما ثارت الخصومة أيضاً حول أبى تمام والبحترى ، فكان لكلّ منهما أنصار ومؤيّدون ، مما دعا الآمدى[٤] إلى وضع كتاب « الموازنة بين الطائيّين » .

لقد آل إلى هذا العصر آراء مبعثرة عن النقد الأدبى ، فحاول بعض رجاله أن يستنبط من هذه الآراء المبعثرة قواعد مطردة كأبى هلال العسكرى مثلا ، ورأى البعض الآخر أن يقف عند النصوص ذاتها ، يتبين ما فيها من مظاهر الجمال أو القبح كما فعل الآمدى ، والقاضى الجرجانى ، وذلك يدل على حركة نقدية نشيطة فى ذلك العصر .

وكان التاريخ من المواد التى عنى بها كذلك ، وكانت قد تعدّدت

---

(١) توفى سنة ٣٥٦ هـ .
(٢) توفى سنة ٣٨٤ هـ .
(٣) توفى سنة ٣٩٥ هـ .
(٤) توفى سنة ٣٧٠ هـ .

الاتجاهات فى التأليف فيه ، من تاريخ للسير والفتوح ، ومن تاريخ للأنساب والطبقات ، ومن تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين ، أو خاص بالناس أو البلاد أو الأمم ؛ وأسهم علماء ذلك العصر أيضاً بجهود مشكورة فى هذه السبيل [١] ، وكان من ذلك كتاب للقاضى الجرجانى .

أما العلوم الكونية من طبيعيّة ، كالطبيعة ، والكيمياء ، والطبّ ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ؛ ومن رياضيّة ، كالجبر ، والهندسة ، والحساب ، والحيل (الميكانيكا) ، والفلك ، والجغرافية ، ومن إلهية ، مما تتعلق بالإله ، وقوى النفس ، وكل ما وراء الطبيعة ، ومن سياسية ، كتنظيم الملك ، وتدبير المنزل ، وتدبير المال والأخلاق — أما هذه العلوم فقد ترجمت عن اليونانية والفارسية ، والهندية وغيرها فى القرن الثانى والثالث للهجرة ، واشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة ، وبرز فيها من فلاسفة المسلمين أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى [٢] ، وأبو نصر الفارابى [٣] ، وأبو بكر الرّازى [٤] .

وكانت هذه العلوم مما يدرس فى عصرنا الذى نتحدث عنه ، كما ألّف فيها بعض علماء هذا العصر [٥] .

* * *

وقد أوجد ابن العميد والصاحب بن عباد حركة أدبية قوّية ، يومئذ ؛ لأنهما أرادا أن يجمعا بين جلال المنصب ووجاهة الأدب : «فهما وزيران خطيران ، وسياسيان كبيران ، وأديبان عظيمان ؛ فاستخدما كلّ ذلك فى إعلاء شأن الأدب» [٦] ، وتأنقا فى إنتاجهما الأدبى تأنّقاً بالغاً .

---

(١) تاريخ الأدب العربى جـ ٣ — العصر العباسى ص ٢٥٤ .
(٢) توفى سنة ٢٦٠ هـ .
(٣) توفى نحو سنة ٣٥٠ هـ .
(٤) توفى سنة ٣١١ أو سنة ٣٢٠ هـ .
(٥) ظهر الإسلام ١ : ٢٤٩ — ٢٥١ .
(٦) ظهر الإسلام ١ : ٢٥٢ .

« فهؤلاء بحكم جاههم وعزّهم وترفهم ، كان نتاجهم الأدبى مترفاً يتأنّق فى فنه : فأناقة الملبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنّق فى الأدب . فأدب هذا العصر تقدم خطوات فى السجع والمحسّنات اللفظية ، والمبالغة البلاغية ، فالصابئ وابن عباد أفرطا فى السجع ، وكادا يلتزمانه ، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم ، هذا إلى الإمعان فى الاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وتفننوا فى تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطرف فيما يصنعون ، من حلى وأدوات زينة ؛ وإذ كانوا فى مركز رئيسى فى الحياة الاجتماعية ، كان طبيعيًّا أن يكون نتاجهم هو المثل يقلّد ويُحتذى ، فمن كان أديباً فقيراً تشبّه بهم . وحذا حذوهم ، وهم بذلك قد خلقوا ذوقاً عامًّا فى الأدب ، يستحسن طريقتهم ؛ فجارى الأدباء هذا الذّوق[1] » .

ولكن ينبغى القول بأنّ بعض الأدباء قد أفلت من إسار السجع يومئذ ، فلم يلتزمه . ولكنه إن جاء لم يرفضه ، فكان طبيعيًّا يستدعيه المعنى ، فلا يضيق به الصّدر . كما أنّ ذلك البعض أفلت كذلك من إسار المحسّنات البديعية ، ومضى منطلقاً مع الطبع يهتدى بهداه . كما فعل القاضى الجرجانى .

وقد تنوعت الكتابة فى ذلك العصر بين رسائل إخوانية . ورسائل سلطانية وكتابة تأليف . وإنشاء مقامات .

وقد ابتكر هذا اللون من الأدب ، وهو فنّ المقامات . اللغوى الرّاوية ، الأديب الشاعر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، عندما رحل إلى نواحى فارس للعمل مع ابنى ميكال ، فرأى أن اللغة الفارسية وآدابها تبعث من أجداثها ، فابتكر نوعاً من الأدب يعارض به الأدب الفارسى فى أربعين حديثاً . وصفها الحصرىّ فى كتاب زهر الآداب[2] بأنها كانت « فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٣ .
(٢) زهر الآداب ١ : ٢٣٥ .

الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع » ، ولعلّ هذه الأحاديث كانت فى معارض عجمية : لأنه كان يعارض بها الأدب الفارسى ، وكانت فى ألفاظ حوشية ، لأن ابن دريد كانت لغويته أغلب شىء عليه .

وجاء بعد ابن دريد ، أبو الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ ، فوضع مقامات على نسق ابن دريد[١] .

واتّبعه تلميذه بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ ، فأنشأ مقاماته التى تحدّث عنها الحصرى ، وذكر أن البديع عارض ابن دريد : « بأربعمائة مقامة فى الكدية ، تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ورقف مناقلتها ، بين رجلين سمى أحدهما : عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الإسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر ، فى معان تضحك الحزين ، وتحرّك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة[٢] » .

وهكذا شهد هذا العصر الذى نتحدّث عنه ميلاد المقامات ونموّها . ومما ينبغى أن يذكر هنا أنه برغم بعث اللغة الفارسية وآدابها فى ذلك العصر كانت اللغة العربية لغة العلم والأدب ، والحكومة والطبقة العالية فى فارس[٣] .

* * *

أما الشعر فبرغم أنه تطور على أيدى المحدثين ، لم تفسده الصناعة ، بل ظلّ محتفظاً بحياته وقوّته ؛ وحسبنا أن نذكر أن المتنبى[٤] ، والشريف الرضى[٥] كانا من شعراء ذلك العصر .

واحتفظ الشعر يومئذ بأغراضه الموروثة : من المدح ، والهجاء ، والرّثاء ،

---

(١) تاريخ الأدب العربى ج ٣ — العصر العباسى ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٢) زهر الآداب ١ : ٢٣٥ .
(٣) ابن العميد ص ١٣ .
(٤) توفى سنة ٣٥٤ هـ .
(٥) توفى سنة ٤٠٦ هـ .

والغزل ، والوصف ، والعتاب ، والاعتذار ، والفخر ، والمجون ، والخمريات ، والزّهد ، والشكوى .

وكان للمدح نصيب كبير من جهود الشعراء فى ذلك الحين .

وقد انعكست صورة العصر فى الشعر والنثر ، فرأينا شعراً يمثل ترف المترفين ، وآخر يحكى بؤس البائسين ، وغير هذين يصوّر ترفع المترفعين ؛ ورأينا شعراً ونثراً لطائفة رأت فساد الحياة الاجتماعية ، وبؤس الطبقة الكادحة ، فرأت الانصراف عن وسائل العيش من التجارة والصناعة والزراعة إلى التسوّل عن طريق الأدب ، وسمّوا بنى ساسان ، وظهر أثر ذلك فى نثر المقامات ، فهى قصص يدور معظمها على الكدية .

وصوّر الشعر ظاهرة حب الغلمان ، فرأينا الوزير المهلبى برغم جلالة مكانته ، وعظم منصبه يقول فى غلام تركىّ كان لمعزّ الدولة ، وجعله رئيس سرّية جرّدها لحرب بعض بنى حمدان ، وكان الوزير المهلبى يرى أنه من عدد الهوى ، لا من عُدَد الوغى ، فقال فيه :

ظبى يرقّ الماء فى وجناته ، ويرقّ عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطرا بمعقد خصره سيفًا ومنطقة تئوده[1]
جعلوه قائد عسكر ضاع الرّعيل ومن يقوده[2]

وهكذا تركت الحياة الاجتماعية صورتها واضحة فيما أنتجه العصر من الشعر .

---

(١) تئودة : تثقله .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٠٤ . والرعيل : القطعة من الجيش .